مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد5 ، العدد9، (مارس 2017)
ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

العلاقة بين اللهجات العربية والقراءات القرآنية

أ. نجادي فتيحة
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف
البريد الالكتروني:
aminamigmig@gmail.com

الملخص بالعربية:

إن علاقة اللهجات العربية القديمة بعلم القراءات قديمة قدم هذه اللهجات في تاريخها واستعمالها، ولذلك فان البحث في موضوع القراءات يستدعي منا النظر إلى علم اللهجات والعكس صحيح، كما ان البحث في اللهجات وتأصيلها يستدعي منا النظر في القراءات القرآنية، وبهذا نستطيع القول بأن العلاقة بين البحث في القضيتين بحث جدلي يفرض علينا الإلمام بالموضوعين عند الحديث عن أحدهما لشدة ارتباط الموضوعين ببعضهما البعض.

Résumé :

La relation entre Arabe Dialectes avec les Lectures Scientifiques sont ancien dans les accents de dialectes histoires et les utilisations, donc pour en savoir plus sur le thème, il est exigé de nous considérer la connaissance Dialectologie et vice versa.

En plus, pour faire un recherche au sujet de dialectes et établir, il est exigé de nous considérer dans les lectures Quran.

En conclusion, en peux dire que la relation entre la recherche dans les deux cas, est une recherche dialectique devrait être notre connaissance du thème au titre de l'un d'eux l'intensité des sujets sont liés les uns aux autres.

إن الترابط بين علوم القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية ترابط دقيق، ومهم في آن واحد، إذ أنّ علوم العربية نشأت خدمة للقرآن الكريم، ومن أجله تطورت دراستها، فقد جاء عن أبي شامة الدمشقي (665 هـ) "أنزل القرآن أولا بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أتيح للعرب أن تقرأه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم في الألفاظ والإعراب.

وبما أن العربية الفصحى لم تكن خاصة بقبيلة من القبائل فحسب، وإنما أخذت أصولها من اللهجات العربية، إلا أن الفروق كانت واضحة في الكثير

من الأصوات التي تمايزت بين القبائل، فقد كان العرب من القبائل الأخرى غير قريش يجدون صعوبة في قراءة بعض ألفاظ القرآن الكريم، ولهذا الأمر، كانت الرخصة في البداية، بأن يقرأوا القرآن بلهجاتهم الخاصة.

وفي هذا الباب نجد الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، قد أولى مبحث اللغات والقراءات مبحثا دقيقا اعتمد في دراسته على آراء القدماء، فقارن بين لغات القبائل من حيث استعمالها للمفردات المختلفة الواردة في الخطاب القرآني، كما خص الكلام عن العلاقة بين القراءات واللهجات باعتماده الدقيق على ما ورد عند علماء القرون الهجرية الأولى بالتسلسل، وميز الفروق الموجودة بينها، وما تميز به كل قرن كما بين مدى فصاحة قريش، وفي هذا السياق يقول: "وهذا الكلام الصريح الواضح عن وجود لغات من كل لغات العرب في الكتاب العزيز يسانده ما قاله أبو عمر بن عبد البر، في كتاب التمهيد، قول من قال: نزل القرآن بلغة قريش معناه عندي في الأغلب، لأن لغة غير قريش موجودة في جميع القرآن من تحقيق الهمزة، ونحوها، وقريش لا تهمز".

وفي هذا الباب أضاف آراء أخرى يناقش فيها هذه القضية التي يطول الكلام لسردها في هذا المقام.

ويقول ابن قتيبة (276 هـ) في تأويل مشكل القرآن في السياق نفسه "فكان من تيسيره أن أمره بأن يقرئ كل قوم بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم، فالهذلي يقرأ: "عتّى حين" يريد: حتى حين، لأنه هكذا يلفظ بها ويسمعها، والأسدي يقرأ: تِعلمون، وتِعلم، و"تِسودُّ وجوه"، و"ألم إِعهد إليكم" والتميمي يهمز، والقرشي لا يهمز، والآخر يقرأ: "وإذا قُيل لهم" و"غيض الماء" بإشمام الضم مع الكسر، و"هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا" بإشمام الكسر مع الضم، و"مالك لا تأمنَّا" بإشمام الضمّ مع الإدغام". ويضيف قائلا: "وهذا ما لا يطوّع به كل لسان، ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يؤول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئا وكهلا، لاشتدّ ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، لم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة"، وهذا ما يجعلنا نقف عند إعجاز القرآن اللغوي، فلما كان العرب فرسان فصاحة يتبارون بالأشعار، والحكم ورقي اللغة، جاءهم القرآن الكريم داحضا لقدراتهم، معجزا لإعجابهم ببيانهم فكان بلغة عربية فصيحة راقية جعل كفارهم يستمعون إلى بيانه خفية لمتعة بلاغته، فكيف بهذا الإعجاز ألا يكفي حاجة لغات العرب.

فقد قال صاحب إبراز المعاني: "هذا القرآن العظيم فيه من جميع لغات العرب لأنه أنزل عليهم كافة، وأبيح لهم أن يقرأوه بلغاتهم المختلفة فاختلفت القراءات فيه لذلك"، هذا الاختلاف الذي كان رحمة للناس لأنه كان يصعب على قبيلة عربية أخرى، فكان القرآن رحمة للشيخ والعجوز والطفل، خاصة

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد5 ، العدد9، (مارس 2017)
ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

وأنهم لا يستطيعون أن يتعلموا نطق القرآن الكريم بلهجة واحدة، وقبائل العرب تختلف في الكثير من الألفاظ، والأصوات حين استعمالاتها داخل الكلمة الواحدة، وهذا سبب آخر للدعوة الإسلامية المحمدية في بداياتها، والذي يتمثل في تسهيل النطق وقراءة القرآن الكريم بصورة صحيحة.

وفي هذا المبحث أفاض الدكتور عبد الرحمن الحاج بالبحث الدقيق في هذه القضية إذ أنه بحث في لغات القبائل، وفي بدايات جمع اللغة العربية، وكذا في محاولة فهم الفصاحة آنذاك، وفي هذا الباب يقول: "فالفصاحة هي في الأصل الملكة اللغوية الخاصة بالذين يفهمون وينطقون باللغة التي نزل بها القرآن وهم كمرجع زماني مكاني "نقطة صفر" أولئك الذين عاشوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فكل من كان يوصف بالفصاحة ويؤخذ بلغته فمرجع فصاحته في الزمان والمكان هو فصاحة هؤلاء العرب، وكل من سبقهم ممن وصل إلينا منهم كلام رواه الفصحاء وكل من جاء بعدهم من هؤلاء الفصحاء، وقياس فصاحتهم ألا تكون تغيرت لغتهم السليقية بالنسبة للغة القرآن".

في هذه الإشارة نجد أن القضية متداخلة أولها: محاولة ضبط مدى فصاحة اللغة من حيث الزمان والمكان، وقد عبّر عنهما صاحب القول بأنهما نقطة الصفر أو هما بداية انطلاق للتغيرات الحاصلة على اللغة بعد ذلك، ونستطيع أن نمثلهما بالرسم التالي:

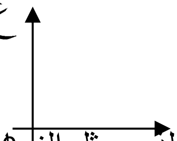

فالخط الأفقي الذي يمثل الزمان سميناه "س" والخط العمودي يمثل المكان وسميناه "ع" يتقطعان عند النقطة "0" لتكون بداية توضيحية لمسار الفصاحة، أما القضية الثانية هي رأيه بأن كل من عاش في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وكان يوصف بالفصاحة ويؤخذ بلغته فمرجع فصاحته في الزمان والمكان هو فصاحة هؤلاء العرب ومن سبقهم أي لا يلفت النظر لما بعد ذلك كأساس صحيح إلا بالتحري الدقيق إن لم نقل أن عملية الجمع والتدوين كان أساسها التحري.

ويقول منّاع القطّان في هذا السياق : "وكان الشعراء والخطباء يحرصون على أن يتحدثوا بلغة خالية من فوارق الأصوات اللغوية، وينتقون الألفاظ، ويختارون العبارات، فمهّد هذا لوحدة لغوية راقية، حيث انسابت جداول الفصاحة العربية، وانتهى مصبّها في لغة قريش"، ويضيف قائلا: "فصارت بذلك أفصح العرب، وبلسانها كان نزول القرآن ابتداءً على الرسول العربي القرشي، وتوجه الخطاب إلى قومه القرشيين أول الأمر: "وَأَنذر عَشِيرَتك الأَقرَبِينَ" الشعراء 214، حتى يكون هذا أدعى لقوة البيان في البلاغ "وَمَا

أرسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاّ بِلسَان قَومِه ليُبَيّن لَهُمْ" ابراهيم 04، "إِناّ أَنْزَلنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيّاً لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ"يوسف02.

فالقراءات القرآنية كانت ترخيصا إلاهيا، وتسهيلا وتخفيفا، إذ لو كلف الناس قراءة القرآن بمستواه الرفيع الذي لم يعتادوا عليه –رغم فصاحتهم آنذاك – لكان من باب التكليف بما لا يستطيعه ولا يقوى عليه القوي الفصيح، فما بالنا بالشيخ الضعيف، وما هذا الترخيص إلا زيادة وحدة بين القبائل العربية، والمقصود بالترخيص حدود ما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ثم عن القراءة تواترا فسيبويه: "إن القراءة لا تخالف، لأن القراءة السنة" وفي هذا المقام كان إنكار عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ابن مسعود رضي الله عنه قراءته: "عتَّى حين" يوسف 35أي حتى حين، وكتب إليه: "إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل، فأقرئ الناس بلغة قريش" وقد شكك الكثير من اللغويين المحدثين في هذا الحديث ومنهم ابراهيم أنيس وأحمد علم الدين الجندي.

على أساسين اثنين أولهما: مخالفة منطوق الحديث وتيسير القراءات القرآنية، أما الثاني: فيتمثل في كون قلب العين حاءً لغة لهذيل، ويبقى هذا الرأي خاصا بالباحث في اللغة من منطق لغوي والتشكيك في الرواية له أهله من المختصين في علم الحديث وعلم القراءات، وهذا الاستشهاد ما هو إلا عرض للآراء للوقوف عند الاختلافات ووجهات النظر.

ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نأخذ به دون الرجوع لأصحابه الثقاة، فلا مجال للاجتهاد في القراءة لأنها سنة متبعة "فالنبي صلى الله عليه وسلم هو الذي أقرأ أصحابه بتحقيق الهمزات وبتسهيلها، وكذلك بالفتح والإمالة، وبالإدغام وبالإظهار، وغير ذلك من أبواب القراءة المأذون بها والمروية بالتواتر وهو الذي أذن بإقراء هذه الكلمة بوجه، وتلك بوجهين، وتلك بثلاث وغيرها بأربع.." إن ما يلاحظه كل دارس في واقع اللغة العربية في مرحلة صدر الإسلام يجد نفسه محاطا بآراء كثيرة، وعليه أن يمحص هذه المرحلة تمحيصا دقيقا سواءً من ناحية الزمان والمكان الذين رسما المعلم الأول الذي أشرنا إليه سابقا، أو المتغيرات الاجتماعية كالولاءات للفرس والروم من بعض القبائل وترسّخ العقيدة القبلية عند بعضهم والتقوقع على الذات وبعد هذه الفترة ما أصاب اللغة بشكل واضح أثناء الفتوح، "ومما وصل إلينا من أشكال التقارب بين اللهجات على سبيل المثال: كشكشة تميم، كسكسة بكر، وشنشنة تغلب، وغمغمة قضاعة، وطمطمانية حمير، ورتة العراق، وهي كما نرى لهجات منسوبة إلى قبائل بعينها" هذا ما يدلي به محمد الحبش في اللهجات التي اتفقت عليها أغلب المصادر والمراجع التي كتبت في هذه القضية، ويضيف قائلا: "وثمة انحرافات لغوية أخرى لم تنسب إلى قبائل بعينها"،

ولكنها كانت شائعة فاشية، كالفأفأة واللّثغة، والغنّة واللّكنة والحبسة والترخيم والتمتمة واللّفف والارتضاح والركّانة".

فالحرص على القرآن الكريم له جند منذ نزول القرآن على سيد الخلق محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد عمد هؤلاء إلى حفظه وقراءته وإقرائه وتدوينه وتوضيح الاختلافات بين قراءاته سواءً المتواترة منها أو الشاذّة فسجّلت ودوّنت وحفظت هي الأخرى، وكذا لكونها تمثل اللهجات العربية أصدق تمثيل فقد اهتم بها علماء القراءات ناهيك عن علماء اللّغة.

وإضافة إلى ما سلف ذكره من اختلاف في اللهجات التي نزل بها القرآن الكريم من حيث الصوت الواحد أو الحرف الواحد في الكلمة الواحدة، نزول القرآن الكريم بكلمات ليست عربية وهي كلمات محدودة وليس في الأمر شك أن هذه الكلمات قد أخذت الجنسية العربية بوجودها في الخطاب القرآني إن لم نقل أن هذا الأمر في حدّ ذاته هو خلاف بين العلماء وقد أشار لهذه القضية منّاع القطان في كتابه: نزول القرآن على سبعة أحرف في قوله: "قيل: إن في القرآن الكريم كلمات بغير العربية، وهي كلمات محدودة، وهذا القول يرجع إلى ما جاء من آثار عن بعض الصحابة والتابعين فسّروا فيها كلمات بغير العربيّة" ومن هذه الكلمات التي يذكرها ما يلي:

"الطور": جبل بالسريانيّة، "طفقا": الأعراف 22 أي قصد، بالرومية "القسط والقسطاس": العدل بالرومية، "إنا هدنا إليك" تُبنا إليك" الأعراف 156 "الرقيم": اللوح بالرومية المُهل: عكر الزيت بلسان أهل المغرب، "السندس": الرقيق من الستر بالهندية، الإستبرق: الغليظ من الديباج بالفارسية..." إلى آخر قوله والذي يتبعه بأن هذا الرأي لابن عباس وتلاميذه وأضاف كذلك السيوطي بعدهم سوى ما ذكروه هم وكذلك ابن أبي حاتم والثعالبي

وغيرهم ممن بحثوا في هذا الباب وباب القراءات واللهجات يطول الحديث فيه، ولا يأخذ فيه إلا من كان حصيفا في المجال ملقنا من مشايخ في هذا العلم فهو علم يحذر من لم يكن له من الزاد إلا القليل بأن يستغور خباياه لأنه متعلق بنص متعبد به، منزل من عند الله عز وجل وما هذا إلا دليل على الدقة البشرية من جهة، والحفظ الإلهي من جهة أخرى.

فالقصة المشهورة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع هشام بن حكيم، وما حدث بينهما حول سورة الفرقان تجعلنا نلفت النظر في هذا السياق بأن الاختلاف في القراءات القرآنية تنوع في المجال اللغوي كالأسماء المرفوعة والمنصوبة والمجرورة والمبنية والاختلاف الصوتي بالإبدال أو القلب أو الإدغام أو الاختلاف بالإمالة، أو الاختلاف بتقديم الصوت أو تأخيره وكذا الاختلاف النحوي في الأسماء المرفوعة والمنصوبة والمجرورة في متواتر

القراءات، والاختلاف الصرفي كما هو في شواذ ما روي في متواتر القراءات مصدرا أو مفردا أو مثنى أو جمعا أو بصيغة اسم الفاعل أو بصيغة أفعل التفضيل أو الاختلاف بالذكر والحذف أو الاختلاف بالتقديم والتأخير.

ومن خلال هذه الوجوه اللغوية بصفة عامة يتبين لنا أن علم القراءات لا ينفصل بأي حال من الأحوال عن علم اللغة العربية وما نجده جليا هو موافقة القراءة الصحيحة للغة العربية السليمة وكما أن كتب اللغة والنحو والصرف سجل حافل بالاستشهاد بالقراءات، وتأكيد صلة علم التجويد وعلم القراءات في تراث البحث القرآني بعلم الأصوات في علم اللغة الحديث هو الصوت اللغوي phonéme أو الحرف بلغة التراث، ويقول التواتي بن التواتي: "والقراءة قد تروي لفظا واحدا وهو ما يعبر عنه بالمتفق عليه بين القراء.

وقد تروي أكثر من لفظ واحد وهو ما يعبر عنه بالمختلف فيه بين القراء"، ويقول كذلك: "وأما ما اتحد لفظه ومعناه إنما يتنوع في صفة النطق به كالهمزات والمدات، والإمالات ونقل الحركات والإظهار والإدغام والاختلاس، وترقيق اللاّمات والراءات أو تغليظها، ونحو ذلك، مما يجعل تمايز القراءات يتباين بين اللفظ من قراءة لأخرى حينا والأدائي فقط حينا آخر.

وبعد أن جاءت الفتوحات الإسلامية واتجه الصحابة رضوان الله عليهم إلى بلدان أخرى من أجل ذلك، اختلفت قراءات الأقوام بحسب القراء الذين لقنوا أهل هذه البلدان فقد قال مكي بن أبي طالب: "قرأ أهل كل مصر مصحفهم الذي وجه إليهم على ما كانوا يقرأون قبل وصول المصحف إليهم مما يوافق خط المصحف، وتركوا من قراءاتهم التي كانوا عليها مما يخالف خط المصحف، فاختلفت قراءة أهل الأمصار لذلك مما لا يخالف الخط" ويقول الجاحظ في الباب نفسه: "وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب، ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر"فاللهجات العربية ظلت حية حتى في البلدان المجاورة بفعل الصحابة الذين ذهبوا إليها والفاتحين الذين انتشروا فيها وهذا ما ساعد على بقائها ولو إلى حين.

ونلفت الانتباه إلى أن العرب الفاتحين نظموا منازلهم في البلدان المفتوحة، ويبدو أن اللهجة هي السبب حسب رأي بعض الدارسين، بما أن الإسلام قد ألّف القلوب على بعضها، لكن خصائص اللهجات لم تعمّر طويلا، فقد بدأت بالتّداخل والاختفاء بسبب اختلاط القبائل العربية.

وفي هذا السياق نشير إلى مبحث مهم ودقيق أشار إليه عبد الرحمن الحاج صالح، وقد حصره في ثلاث نقاط رئيسية، أولها: أن الفصاحة لم تكن مقصورة في القرنين الأول والثاني على أهل البدو، أما الثاني فلم تكن الفصاحة

مقصورة على القدامى، والثالث كون الفصاحة لم تكن مقصورة على العرب الأقحاح.

وهذا ما يفتح الباب أمامنا للتعمق أكثر في حقيقة اللّهجات العربية القديمة، وما يؤنس الدارس في مجال ربط علم القراءات وعلم اللغة، أن الباحثين في القرون الأولى كان أغلبهم إن لم نقل جلهم قد تمكن من العلمين على حد سواء.

إنّ "كبار أئمة القراءة هم من أئمة العربية الفحول كأبي عمر بن العلاء ويعقوب الحضرمي والكسائي، وسائرهم كذلك على مكنة من العربية وعلومها، فابن كثير أعلم بالعربية من مجاهد، وعاصم جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد وكان حمزة عارفا بالفرائض والعربية والعلم بالعربية أصل من الأصول التي بنى عليها ابن مجاهد". وهذا التداخل العلمي عند الباحثين كثر في القرون الأولى حتى أن العلوم العربية كانت متداخلة من جهة والعالم كان متمكنا في الكثير من الجوانب وهذا ما أثر بالإيجاب على اللغة العربية عامة، وعلم الأصوات بخاصة ولحمته الشديدة بعلم القراءات "فكتب اللغة والنحو والصرف سجل حافل بالاستشهاد بالقراءات وهي لا تقتصر على القراءات الصحيحة المشهورة، وإنما تتعداها إلى القراءات الشاذّة، فهذا سبيويه إمام النّحاة يكثر من الاستشهاد بها، ويخصها بهالة من التقديس يرى معها عدم جواز مخالفتها، ويضيف قائلا: والمعاجم العربية على اختلاف أنواعها تمور بذكرها، وابن يعيش يكثر من الاستشهاد بها ويتصدى للنحاة الذين طعنوا في بعض القراءات، ويعدها السيوطي على رأس ما يحتج به من مصادر السماع ويقف هنا محمد حسن الطيّان ليؤكد على هذه القضية ويبيّنها بدقّة حسب ما ذهب إليه الباحثون الأوائل في علم اللغة والقراءات فيرى أن: "بين علوم القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية ترابط محكم، فمهما تتقن من علوم العربية، وأنت خاوي الوفاض من علوم القرآن، فعلمك بها ناقص وهي الأساس، وقدمك فيها غير ثابتة، وتصورك للغة غامض ويعرضك لمزالق تشرف منها على السقوط كل لحظة، وسبب ذلك واضح لكل من ألم بتاريخ العربية، فهو يعلم حق العلم أنها جميعا نشأت حول القرآن وخدمة له".

ولأن الترابط شديد بين علوم العربية وعلم القراءات فلم يكد أحد من الباحثين في هذا المجال إلا وقد جسده في مؤلفاته، وخاصة القدامى منهم، وأما المحدثون فقد أشاروا إلى ذلك، وخصصوا كلامهم بدقة لما صار عليه البحث من مجالات تخصص متعددة، من جانب ومتكاملة من جانب آخر، وعلى سبيل المثال ما يدلي به عبد الصبور شاهين في كتابه القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث بقوله: "ومن العلوم التي ينبغي الاعتماد عليها في دراسة العربية الفصحى علم القراءات القرآنية مشهورها وشاذها لأن رواياتها هي

أوثق الشواهد على ما كانت عليه ظواهرها الصوتية والصرفية والنحوية واللغوية بعامة في مختلف الألسنة واللهجات بل إن من الممكن القول بأن القراءات الشاذة هي أغنى مأثورات التراث بالمادة اللغوية التي تصلح أساسا للدراسة الحديثة والتي يلمع فيها المرء صورة تاريخ هذه اللغة الخالدة".

وقد اعتنى بهذا المبحث الكثير من الباحثين القدماء والمحدثين ونجد فيه كتبا كثيرة ومتنوعة، درست الموضوع من جوانب متعددة، لغوية كانت، وحتى أدبية وهذا ما يدل على أن البحث في العلاقة بين اللهجات والقراءات هو موضوع قديم جديد، قديم إذ اعتنى به الباحثون القدماء، فأصّلوا اللهجات وفرّقوا القراءات ودقّقوا فيها لتصبح علما متواترا من حيث التأليف والتلقين واعتنى به المحدثون إذ ربطوا علم التجويد بعلم الأصوات والمقامات الصوتية، وأحدثوا عليه من الأساليب التكنولوجية والعلمية ما زاد توكيد وتأكيد ما توصل إليه القدماء في دراساتهم وأبحاثهم رغم انعدام الوسائل وما هذا إلا دليل على رفعة درجة الذوق الصوتي لدى العرب، لأن العربية لغتهم فاستطاعوا أن يدققوا في مباحثها ويصلوا إلى عمقها ويقول في هذا السياق صاحب كتاب الصوت اللغوي ودلالته في القرآن الكريم: "فرعان اثنان من فروع الدّرس اللّغوي شغلا علماء العربية ولا يزالان يشغلان الغيارى على هذه اللغة، ومحبيها وعشاقها وهما علم النحو وعلم الأصوات، فأما علم النحو فقد تكون له إسهامات عظيمة في تأصيل علم الأصوات إن لم نقل في تأسيسه" لأن اللغة لا تكون فصيحة إلا إذا استوفت شروط صحة الجملة، وصحة الجملة عمادها النحو.

أما علم الأصوات فهو علم دقيق اعتمده القراء واللغويون، فالتجويد أساسه الصوت، وعلم التجويد يتقاطع مع علم الأصوات تقاطعا دقيقا يصح أن نصفه بالتقاطع المتكامل فعلى "الرغم من أن علماء القراءات كان اعتمادهم في هذه الجهود على الحس وحده، وأن المحدثين من علماء اللغة يعتمدون اليوم في دراستهم في علم الأصوات على الوسائل التقنية الحديثة من أجهزة ومختبرات، وعلم تشريح الأعضاء مما لم يكن ميسرا من قبل.

ونشهد نحن الآن اعتراف المحدثين بأن كثيرا من المبادئ والنظريات اللغوية الحديثة في علم الأصوات جاءت مطابقة لما سبق وأن قرره علم التجويد منذ أكثر من عشرة قرون وفي هذا اعتراف بدقة جهود علماء القراءات وعمقها" والأكثر من ذلك، أن علماء القراءات كانت دراساتهم وإشاراتهم الصوتية أكثر دقة وأشد اتقانا في استعمالها من خلال قراءاتهم للقرآن الكريم فقد "أسهم علم القراءات بجهد في إضافة تفصيلات صوتية حيث توسعوا في وصف القراءات القرآنية المختلفة فسجلوا خصائص صوتية تنفرد بها التلاوة القرآنية مثل: الإمالة والروم والإشمام وغيرها.

ولأن القراءات القرآنية منبعها اللهجات العربية القديمة وعلم الأصوات هو أحد فروع علم اللغة أو أساس علم اللغة "ولأن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "كما قال ابن جني فإن كل من العلمين إذن خدم الآخر، فهي متكاملة فيما بينها، وهذا ما يجعل البحث في اللهجات العربية والقراءات القرآنية يدفع بنا إلى البحث في علم الأصوات وعلم التجويد وربط كل هذه العلوم ببعضها البعض.

ويذكر عبده الراجحي في كتابه اللهجات العربية في القراءات القرآنية في باب سماه القراءات مصدر أصيل لدراسة اللهجات ومنه أكد على أن القرآن هو المنبع الأساسي الذي حافظ على هذه اللهجات كما أنه إثبات لوجودها فيقول: "وقد رأيت ما رأيت عن حديث الأحرف السبعة، وعن أنه بعث إلى أمة أميين ومنهم الغلام والخادم والشيخ العاسي والعجوز ورأيت ما علل به ابن قتيبة وابن الجزري اختلاف القراءات لاختلاف اللهجات، ثم رأيت أيضا هذا الضابط الذي وضعوه للقراءة الصحيحة، والذي أحد أشراطه القراءة موافقة للعربية ولو بوجه". وهذا ما يعلل بأن موافقة العربية ولو بوجه هو الاعتقاد السائد من حيث صحة القراءة بلهجات العرب على اختلافها، ويستشهد بما يؤكد ذلك من إقرار ابن خالويه.

ويشير أهل الاختصاص في القراءات إلى أنّ القراءة لا تكفي في النقل بالسماع، بل لابد من شرط التلقي والعرض "فأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية، إذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها"، يطرح عبده الراجحي سؤالا مهما يتبادر إلى ذهن كل باحث في هذا المجال خاصة الباحث الذي يربط العلاقة بين اللهجات والقراءات، كنه هذا السؤال هو كما يلي: "والآن، إذا كنا مصيبين في نظرتنا إلى القراءات القرآنية، وإذا كنا نعتمد عليها في المقام الأول لمعرفة اللهجات العربية قبل الإسلام فهل نعتمد على القراءات الصحيحة وحدها دون الشاذة أم هل نعتمد عليهما معا؟".

ويحاول الإجابة عن هذا التساؤل الذي يحمل الكثير من القضايا والتي تتبادر إلى ذهن القارئ والباحث في هذا المجال منها:

- هل القراءات الصحيحة تصور في قالبها اللهجات العربية القديمة؟.
- هل القراءات الشاذّة يمكن أن تكون مصدرًا آخر لمعرفة اللهجات العربية القديمة؟.
- هل القراءات القرآنية الشاذة قرئت حقيقة تابعة للهجات معينة آنذاك؟.
- هل القراءات القرآنية صحيحها وشاذها كاف من خلال المصطلحات الواردة في القرآن الكريم لمعرفة اللهجات العربية القديمة؟.

إلى غير ذلك من القضايا التي تبدو في ظاهرها قضايا بسيطة أو قضايا استنتاجية لأي باحث أو دارس لكن الحقيقة تدعو إلى التأمل والتفكر مليا، ولنفكر في دراسة هذه القضايا من نواحيها المختلفة إضافة إلى ما تمليه علينا طبيعة الموضوع أي موضوع القراءات القرآنية وهو ما يميز هذا العلم كونه علما قديما حديثا متميزا هو الآخر بالتواتر حاله حال القراءات القرآنية لما يجب أن يتوفر فيها من تواتر.

وفي سياق الإجابة على تساؤلاتنا نجد للسيوطي رأيا في هذا المجال من خلال قوله أن "كل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواترا أم آحادا أم شاذا، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياسا معروفا بل ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه" فالسيوطي هنا يفتح الباب المنطقي هنا للاعتماد على القراءات القرآنية لأجل معرفة اللهجات لكن ما هي حدود ذلك؟؟

ويجيب عن هذا التساؤل عبده الراجحي في نقاط أربع:

1- لم تكن تروى عن القراء رواية واحدة، بل وردت عنهم الكثير من الروايات في قراءة واحدة فإذا نسبت رواية إلى قبيلة ورواية ثانية إلى قبيلة أخرى، فكيف يكون الموقف؟

2- لو طبقنا ذلك لكنا متناقضين مع المنهج الذي قررناه في القراءات القرآنية وهو أن القارئ هو ناقل للقراءة تواترا فحسب ومن هنا تظهر إشكالية أخرى وهي إلى أي الشيوخ تنسب القراءة المتواترة عن مجموعة منهم؟

3- القارئ لا يمثل بيئته دائما، وخير مثال عندنا ابن كثير قارئ مكة، ومكة منزل قريش، وقريش تسهل ولا تهمز، وابن كثير كان أكثر الهامزين.

4- العربي كان يستطيع الجمع بين أكثر من لهجة والدليل على ذلك أن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم اختلفا في قراءة سورة الفرقان وكلاهما من لهجة وقبيلة واحدة.

فالأمر يحتاج إلى أن نسلك منهجا آخر، وهو أن نجمع هذه القراءات من مكانها، ونخرج منها ما نراه ممثلا للهجة من اللهجات، ونعزو هذه اللهجات إلى قبائلها.

المستشرقون وآراؤهم حول القراءات القرآنية:

إن الالتفات إلى قضية آراء المستشرقين وآرائهم حول القراءات القرآنية لجدير أن نشير إليه من باب أهميته في الموضوع لكن نحاول ألا نخوض في هذه الآراء بدقة حتى لا نخرج عن الموضوع إنما الشاهد هنا أن نلفت النظر إلى قضية هامة في العلاقة بين القراءات القرآنية واللهجات العربية.

فالعلماء المحققون لا يزالون يكثفون الجهود لخدمة القرآن وعلومه عامة وخاصة علم القراءات الذي سخر له الله تعالى نخبة من العلماء توالت عبر القرون أسماؤهم فاجتهدوا في البحث الدقيق والتصنيف وأكثر من ذلك في الحفاظ على النص المتواتر حفظا في الصدور عن طريق التلقين وهذا هو الجانب المهم في القراءة القرآنية ومدى تمظهر خصوصيتها.

فكان هذا دفاعا منهم لأعداء الدين وخاصة للدفاع عن القراءات القرآنية الذين أرادوا النيل من سلامة الخطاب القرآني من خلال التشكيك.

لقد توالى شن الحملات الباطلة والمغرضة ضد القراءات القرآنية من أجل إظهار أن القرآن الكريم له قراءات متناقضة ومتعارضة ومتنافرة، وأنه ليس قرآنا واحدا، بل مجموعة من القراءات، مثل ما نجد هذا عن اجتنس جولد "تسيهر" صاحب كتاب "مذاهب التفسير" الذي جاءت معظم نصوصه في هذا السياق كقوله على سبيل التمثيل لا الحصر "في مواضيع كثيرة قراءات معتمدة على الروايات الموثوق بها تختلف اختلافا ليس دائما من نوع عادم الأهمية وتجاه هذه القراءات يسود الميل إلى التسامح في اختلافها، فلم تستبعد تلك القراءات المختلفة لصالح نص اعتمدت صحته وحده، كما كان منتظرا من نص إلهي إنما يمكن أن ينسب إلى نفسه حق الصدور عن الله إذا جاء في قالب موحد متلقى من الجميع بالقبول بل اعتمدت أصالة كل هذه الروايات المختلفة، أي صدورها عن المصدر الإلهي جميعا، واحدة إلى جانب أخرى" وقد علق عبد الحليم النجار عن العبارات التي وضعنا تحتها سطر بردود عن هذه القضايا.

العبارة الأولى: الروايات الموثوق بها: "انظر كيف يعترف جولد تسيهر بوثوق الروايات، وإذا هل يسع منصفا إلا الإذعان، والاقتناع بتعدد قراءات القرآن".

العبارة الثانية: عادم الأهمية: "مهما كان للقراءات المختلفة من أهمية فلم يبلغ ذلك المجال مبلغ التضاد أو التناقض، حاشا لله "أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"، وقد حصر العلماء أنواع الاختلاف فلم ترد على ثلاثة أحوال اختلاف اللفظ والمعنى واحد، اختلافهما جميعا مع جواز اجتماعهما في شيء واحد، بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد".

العبارة الثالثة: الميل إلى التسامح: "ليس هناك تسامح بل يجب على كل مسلم قبول القراءة متى ثبتت روايتها واعتمدت صحتها، ويكفر من أنكر ذلك كما سبق".

العبارة الرابعة: "...من الجميع بالقبول": "لا وجه لهذا التحكيم، وقد أثبت الله سبحانه إعجاز القرآن لكل من تحداه، أفلا يعلم جولد تسيهر أن من أساليب

البلاغة تنويع العرض مع عدم تغيير القصد في هذا التنويع، وكم تساجل البلغاء في التفنن بوضع كلمة مكان أخرى أو قراءتها على وجوه متعددة، ولكن هذا ذوق عربي نلتمس العذر لغير العربي ألا يدركه".

هذه القضايا الأربع التي أشار إليها عبد الحليم النجار وأجاب عليها إجابات دقيقة ورادعة لما جاء في نص المستشرق جولد تسيهر لجدير بالدراسة والتمعن من أجل تفادي كل ما يحوم حول حمى الشبه، ومن يحاولون التشكيك في سلامة الخطاب القرآني، لضعفاء العلم والإيمان إذ يشككون أن للقرآن الكريم قراءات متناقضة ومتعارضة ومتنافرة وأنه ليس قرآنا واحدا. بل هو مجموعة من القراءات يحصل التوافق بينها في المعنى: "وَيجِدَ الذِينَ كَفَرُوا بِالبَاطِلِ لِيَدحضُوا بِهِ الحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَتِي وَمَا أَنذَرُوا هُزُوًا "سورة الكهف 56.

ولنأخذ مثالا آخرا من نفس الكتاب "مذاهب التفسير الإسلامي" لاجنتس جولد تسيهر والذي هو في نفس السياق الموضوعي مع الشاهد الأول، حينما قال: "وقد عالج هذه الظاهرة علاجا وافيا، وبين علاقتها بفحص القرآن زعيمنا الكبير تيودور نودكه، Theodornoedeke في كتابه الأصيل البكر: تاريخ القرآن الذي نال جائزة أكاديمية النقوش الأثرية بباريس، وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة تبعا لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته وعدد تلك النقاط". ويضيف قائلا: "بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية، يدعوا اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربية الأصلية ما يحدده، إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة، وبهذا إلى اختلاف دلالتها، وإذا فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات في المحصول الموحد القالب من الحروف الصامتة، كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقولا أصلا، ولم تتحر الدقة في نقطة أو تحريكه. وهنا يشير عبد الحليم النجار إلى العبارات التي وضعنا تحتها سطرا بالردود التالية:

العبارة الأولى: وترجع نشأة: يقول: "لم يكن الخط العربي سببا في اختلاف القراءات، بل كان مساعدا على استيعاب القراءات الصحيحة بحالته التي كان عليها عند كتابة المصاحف العثمانية، من إهمال النقط والشكل". ويضيف قائلا: "فليست العبرة بالخط، وإلا لاعتمدت قراءات يسمح الخط بها كقراءة حماد التي يذكرها المؤلف وكقراءة ابن شنبوذ وغيره، والتي يذكرها أيضا فقد كان يرى أن ما وافق خط المصحف العثماني صحت القراءة به متى صح وجهه في العربية بقطع النظر عن الرواية، ولذلك أدب وعذب واستتيب حتى رجع عن غيه".

العبارة الثانية: في نشأة...": يقول عبد الحليم النجار: "مقتضى كلامه هنا أن نشأة القراءات متأخرة عن الخط، وقد ذكر من قبل، وسيكرر من بعد أن عنصر الحرية في اختيار القراءة كان موفورا منذ أول تداول القرآن، وإذا فلم يكن ذلك ناشئا عن الكتابة، وقد علمت أن إهمال النقط والشكل كان مساعدا على استيعاب القراءات الصحيحة لا موجبا للاختلاف".

إن القضايا التي دارت حول حمى القرآن من تشكيك مسّت كل دقائقه من خط أو نقط أو تأويل أو تغيير حسب الدلالات النحوية والصوتية في التبدلات الحاصلة بين القراءات فلم تخلو كتابات المستشرقين من إبداء الحجج الواهية لضرب عمق القرآن الكريم، وما علموا أن الله سبحانه وتعالى حفظ كتابه خير حفظ فسخر له الألواح والقلوب والعقول على مر الأزمان.

من خلال هذا البحث نستنتج أن الدارس لعلم القراءات القرآنية لا يمكنه أن يتجاهل الاطلاع على علم اللهجات العربية، لما لذلك من أثر على القراءات القرآنية واختلافاتها، فالدارس للهجات العربية، يستطيع أن يميز الفروق الصوتية في كلام العرب، ومنه فإن القرآن الكريم جاء ميسرا على الأمم من أجل قراءته القراءة الصحيحة والتي لا تخرجه عن المعنى الصحيح له، فجاء على أحرف العرب كما قال عنه ذلك أهله وأهل اللغة العربية.

إن العلاقة بين علم اللهجات العربية وعلم القراءات القرآنية علاقة جدلية تحتاج إلى الدراسة والتمعن في نفس الوقت لا نستطيع أن نهمل التعرف عن علم اللهجات ولا عن علم القراءات إذ نجد أن هذه المباحث تمليها علينا الضرورة من أجل الوصول إلى بناء فكرة صحيحة وفي ختام العلاقة بين اللهجات والقراءات أشرنا إلى قضية مهمة، هي نظرة المستشرقين إلى علم القراءات بناءً على لهجات العرب، وقد تعمدنا الإشارة إلى هذه القضية لما لها من أهمية، إذ أن المستشرقين في دراساتهم هذه دسّوا السّم في الدّسم إذ أنهم يوهمون القارئ ببعض الحجج الواهية التي يضعونها من نسج خيالهم، وكيف ما يحلو لهم.

هوامش البحث ـ المصادر والمراجع:

1. الإبانة عن معاني القراءات، مكي بن أبي طالب القيسي، تح: جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر، ط 1، 2007، ص 49.
2. إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع، أبو شامة الدمشقي، عبد الرحمن بن إسماعيل، تح: إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، (د، ت)، ص 713.
3. الاقتراح في علوم أصول النحو، السيوطي، تح: محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، 1426، 2006، ص 17.
4. بن أبي حاتم: عبد الرحمن محمد الرازي، الحافظ المحدث، من تصنيفه، الجرح والتعديل والتفسير وعلل الحديث، ت 327 هـ.
5. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، تح: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ط 3، بيروت، لبنان، ط3، 1981 م، ص 39.
6. الثعالبي: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، من أئمة اللغة والأدب من كتبه يتيمة الدهر وفقه اللغة، ت 429 هـ.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

7. السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، عبد الرحمن الحاج صالح، موفم للنشر، (صدر ضمن تظاهرة عاصمة الثقافة العربية)، الجزائر، 2007، ص 202.
8. السماع اللغوي العلمي عند العرب، ومفهوم الفصاحة، عبد الرحمن الحاج صالح، ص 69، 70، 71.
9. صحيح البخاري: البخاري أبو عبد الله محمد بن اسماعيل، دار الجيل، بيروت، (د، ت)،ج1، ص 33.
10. الصوت اللغوي ودلالته في القرآن الكريم، محمد فريد عبد الله، مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط 1، 2008، ص64.
11. ظاهرة الإعراب في النحو العربي (مقال)، التواتي بن التواتي، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد 9، السنة 5، جمادى الثانية 1430 جوان 2009، ص 96.
12. عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي ومفهوم الفصاحة، ص 66.
13. القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث القاهرة، عبد الصبور شاهين، د ت ط، مكتبة الخانجي، مصر، ص 7، 8.
14. القراءات القرآنية وعلاقتها بالأصوات واللهجات، محمد حسن الطيان، ص 51.
15. القراءات المتواترة وأثرها في الرسم القرآني والأحكام الشرعية، محمد الحبش، دار الفكر (دمشق، سوريا)، دار الفكر المعاصر، (بيروت، لبنان)، 1999، ص 26.
16. الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه، تح: عبد السلام محمد هارون، دار القلم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975، ج 1، ص 148.
17. اللهجات العربية في القراءات القرآنية، عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (د. ت. ط)، ص93.
18. اللهجات العربية في القراءات القرآنية، عبده الراجحي، ص 99.
19. ما أخبر به سيبويه تحقيق أهل الحجاز لهمزة النبي فقال إنه قليل ورديء أي بعيد.
20. مخارج الحروف وصفاتها، أبو الأصبغ السماتي الاشبيلي المعروف بابن الطحان، تح: محمد يعقوب تركستاني، رسائل من التراث، ط2، 1991، ص 84.
21. مذاهب التفسير الإسلامي: إجتنس جولد تسيهر، تح: عبد الحليم النجار، دار القراء، الطبعة الخامسة، 1992، بيروت، لبنان، ص 6، 7.
22. مفاهيم في علم اللسان، التواتي بن التواتي، دار الوعي، الروبية، لجزائر،ط1، 2008،ص 127.
23. نزول القرآن على سبعة أحرف،مناع القطان،مكتبة وهبة،القاهرة، ط1991،1411/1،ص 08.
24. النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تح: جال الدين محمد شرف، ج 1، ص 11.
25. هو من علماء الأندلس الكبار توفي في شاطبة في 463.